Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الحكم على الأشياء من صفات الخاصة، أما سائر الناس وسوادهم فهم يستقبلون كلام المتحدث أو الخطيب إما بمكانته الاجتماعية، وهيئته ولباسه. وإما مأخوذين بمواقفهم النفسية تجاه المراتب والمنازل الاجتماعية المتفاوتة، فهم ـ غالبا ـ بين حالى القبول المطلق أو الدفع جملة واحدة.

أما فى مراحل الوعى الحضارى والرقى العقلى فإن المعيار الاجتماعى يخف وزنه ـ غالبا ـ فى نفوس السامعين، فلا يقبلون الكلام على إطلاقه، ولا يدفعونه جملة واحدة، تبعا لمنازل الخطباء ومكانتهم. وليس أدل على هذا من إباحة الحوار ـ على اختلاف درجاته ـ مع أصحاب المنابر، ولو كانوا من ذوى القامات العالية، والمنازل المرموقة. وكثيرا ما كان يستوقف الخليفة فى العصر الراشدى، وهو فى خطبته؛ ليواجه بحوار قد يشتد إلى درجة المعارضة أو الخلاف فى الرأى. وليس فينا من لم يقرأ أو يسمع حكاية المرأة التى قاطعت ـ أمير المؤمنين ـ عمر رضى الله عنه، وهو يخطب فى شأن المهور، حتى نزل عن رأيه إلى ما قالت.

هذا بالنسبة للجمهور أو المتلقى بصفة عامة. أما الخطيب أو المتكلم فضرورى أن يلتزم بالمعيار الاجتماعى فى مراعاة أحوال المخاطبين ومنازلهم، «فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة»(١)؛ لأن مهمة الخطيب هى الإقناع ـ كما عرفنا ـ وليس الناس سواء فى الوصول بهم إلى تلك الغاية، فلكل طبقة ما يناسبها من الحديث، ولكل منزلة من المنازل ما يستهويها من الخطاب (ولكُلِ قومٍ هَاد). ولعلنا فى ضوء هذا المعيار ندرك شيئا من السر فى التمايز بين أسلوب القرآن المدنى، وأسلوب القرآن المكى، كما يجب أن ندرك أن للدعوة إلى الله منهجا حضاريا، يلتزم به الداعية، مراعيا أحوال الناس ومنازلهم، مصروفا عن مشاعره الخاصة، ومواقفه النفسية من حظوظ الدنيا.

(١) البيان والتبيين ١ / ٩٢.